

السبـقـة 2010-05-01

٩٧٤- كل شيء هادئ في الميدان الشرقي!!

تعتنة الدستور

.... تعجب بعض الأصدقاء من دعوتى لثقافة الحرب وهم يعرفون عن مدى كراهيتى للحرب ورفضى لها، سألونك هل الدعوة لثقافة الحرب، هي دعوة إلى الحرب؟ كيف ذلك وأنا أعلن حرجى، بل رفضى لو استطعت - أن أزهق روح حارب لا أعرفه وراءه أسرة تنتظره ، مجرد أنه أطاع رئيسه ليكون في مرمى مدفوعى ، في ميدان قتال حضره ليقتلنى؟

ما هذا التناقض؟

رحيث أبحث في أوراقى، وذاكرتى:

أنا أكره الحرب كره العمى، عادى، وقد بدأت كراهيتى لها منذ صبائ (14 سنة) حين قرأت رواية "كل شيء هادئ في الميدان الغربى" للكاتب الألماني "إيريش ماريا ريمارك" (1929)، نفس بداية الصديق على سالم في كراهيته للحرب، وله ما انتهى إليه، ما دام يتحمل مسؤوليته، فحين انتهيت أنا إلى أن ثقافة الحرب، هي قانون البقاء، هي حالة استنفار دائم لوعى يقتضى عب للحياة، جاهز للانقضاض على أعدائها الظلمة القتلة، حالة لا تهدأ أبداً حتى بالسلام، الذى هو - كما ذكرت - "سكتة" بين حربين. ثقافة الحرب هي الجهد الأكبر، هي تأمر مستمر لصالح الحياة، شريطة أن يتم تحت مظلة عدل حقيقي بفرص متكافئة. ثقافة الحرب هي هذا النوعى الدائم جائحة حرب حياتية يمكن أن تفرز إبداعاً، أو تصنع قنبلة ذرية، أو تنتصر في معركة، أو تنهازم فنتعلم فنحارب من جديد. لعل هذه الحالة هي التي فزت مني منذ ربع قرن في مقال "قصمة" يؤيد العمليات الانتحارية مادام ليس لها بديل، لتنشر في الأهرام (17 / 10 / 1985). اكتشف الآن أننى برغم تأييدي لمعاهدة السلام - مازلت أعيش ثقافة الحرب كما ظهرت في هذه القصة:

القصة :

"الذراع .. والخزام"

تند الذراع الأفعى إلى حيث لم أحسب، تنسحب اليد اللزجة فوق المجرى المخفي في ثنياها الستر، تلصقني الأخرى على قفالي،

يتخـم صـوت خـشن دـون توـقـف حـتـى أـتـبـين أـنـهـا قـهـقـهـة تـصـدـر مـنـ أـمـعـاء خـمـور لـمـ يـتـقـيـاـ، يـبـصـقـ عـلـى وـجـهـ اـبـنـيـ النـائـمـةـ فـيـ حـجـرـيـ قـائـلـاـ: "... كـلـهـ بـثـمـنـهـ .. وـالـلـىـ عـاجـبـهـ"

المـمـثـلـ الأـكـبـرـ يـدـهـنـ شـعـرـهـ المـصـبـوـغـ بـشـحـمـ نـقـنـ، يـتـحـدـثـ عـنـ العـدـلـ القـاتـلـ وـالـرـدـ الـلـغـوـمـ، وـصـدـورـ تـشـرـيـعـ أـحـدـ لـتـقـنـيـنـ النـذـالـةـ وـالـوـغـدـنـةـ الـمـؤـجـهـةـ، أـىـ وـالـهـ، أـتـقـيـاـ شـعـرـيـ، أـوـزـانـ قـصـائـدـ حـجـارـةـ مـنـ سـجـيلـ تـلـطـمـ وـعـيـ، أـفـتـحـ درـجـ مـكـتـنـيـ لـأـبـثـعـ نـتـائـجـ آخـرـ بـحـثـ جـلـعـيـ لـمـ اـفـسـرـ بـعـدـ نـتـائـجـهـ، أـرـقـامـ مـرـصـوصـةـ فـيـ جـدـاـولـ مـعـقـدـةـ، يـشـغـلـونـنـاـ طـوـلـ الـوقـتـ بـهـذـاـ العـبـثـ الدـائـرـ حـولـ جـزـئـيـاتـ الـجـزـئـيـاتـ، أـعـثـرـ مـصـادـفـةـ عـلـىـ عـقـدـ زـوـاجـيـ فـأـخـفـيـهـ بـعـيـداـ خـشـيـةـ تـعـزـيقـهـ، أـلـعـنـ مـيـثـاقـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ وـالـوـصـاـيـاـ الـعـشـرـ، وـإـلـاعـنـاتـ الـعـمـرـةـ السـيـاحـيـةـ. أـخـجلـ مـنـ جـرـدـ التـفـكـيرـ، لـاـ أـجـرـأـ أـنـ أـتـطـلـعـ فـيـ وـجـهـ حـفـيـدـيـ، يـسـتـدـيرـ نـائـماـ- يـخـفـيـ وـجـهـهـ فـيـ رـجـمـ وـسـادـةـ صـغـيرـةـ، لـيـسـتـ نـظـيـفـةـ، أـلـعـنـ الـأـنـتـخـابـاتـ، وـالـصـحـفـ، وـأـبـرـاجـ الـمـساـكـنـ، وـالـمـدـنـ السـيـاحـيـةـ وـأـسـعـارـ الـدـولـارـ، أـطـمـسـ إـحـسـاسـاتـ غـافـلـةـ لـمـ تـطـمـسـ بـعـدـ، مـاـ عـادـ جـوـزـ.. مـاـ عـادـ جـوـزـ..

الـخـسـسـ خـيـطـ الدـمـ جـرـىـ فـيـ كـلـ دـرـوبـ وـجـودـيـ، فـهـوـ الـقـتـلـ. فـرـضـ كـفـاـيـةـ؟ أـطـنـ كـفـاـيـةـ، بـلـ فـرـضـ عـيـنـ لـاـ يـسـقـطـ أـبـداـ، لـاـ يـسـقـطـهـ انـ خـارـبـ كـلـ الـأـجـنـةـ فـيـ بـطـوـنـ أـمـهـاـتـهاـ، لـاـ يـسـقـطـهـ انـ يـتـبـدـلـ النـاسـ غـيـرـ النـاسـ، الـعـارـ يـصـبـعـ عـارـاـ أـبـشـعـ إـذـاـ عـبـثـ بـهـ عـتـمـةـ الـذـاكـرـةـ اوـ مـؤـقرـاتـ الـقـمـةـ.

سـوـفـ أـقـبـلـ الدـعـوـةـ، هـذـاـ هوـ رـقـمـ تـلـيفـونـ قـرـبـيـ الـذـىـ كـانـ يـعـمـلـ بـالـمـاـخـابـرـاتـ، يـكـرـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ كـراـهـيـتـهـ لـذـئـبـ مـسـعـورـ جـرـىـ جـائـعـاـ فـيـ رـوـضـةـ اـطـفـالـ، سـوـفـ يـدـلـيـ عـلـىـ نـوـعـ الـمـتـفـجـرـاتـ وـطـرـيـقـةـ الـتـشـغـيلـ، لـابـدـ أـنـ تـكـوـنـ الـزـيـارـةـ 'الـعـلـمـيـةـ' الـثـالـثـةـ اوـ الـرـابـعـةـ حـتـىـ يـطـمـنـنـواـ، زـلـائـيـ حـسـنـوـ الـنـيـةـ مـهـدـوـ الـطـرـيقـ، الـأـسـسـ الـنـفـسـيـةـ لـلـتـفـاـوـضـ الـدـولـيـ (!!) لـيـكـنـ جـتـاـ عـلـمـيـاـ يـعـتـاجـ لـمـقـابـلـةـ الصـقـورـ وـالـحـمـائـمـ جـمـعـيـمـ، سـيـكـوـلـوـجـيـةـ الـعـلـاقـاتـ الـخـازـمـةـ الـإـثـنـيـةـ (أـىـ كـلـامـ بـلـاـ معـنـىـ: بـكـاهـلـاـشـ رـوـمـيـزـيـزـ)ـ الـخـازـمـ رـقـيقـ الـسـمـكـ تـمـامـاـ، وـالـتـحـكـمـ مـنـ خـلـالـ قـلـمـ حـبـرـ جـافـ، جـتـدـ الـنـقـاشـ الـعـلـمـيـ، أـنـفـجـرـ، بـيـ- فـيـهـمـ .. مـعـلـنـاـ وـصـيـقـ، رـسـالـتـيـ.

أـنـتـقـلـ عـرـ الـحـاجـزـ غـيرـ الـرـئـىـ اـشـعـرـ اـنـ أـخـفـ وـزـنـاـ حـتـىـ اـتـصـورـ - فـرـحاـ- أـنـ الطـيـرانـ الـلـوـلـيـ الصـاعـدـ سـوـفـ يـدـوـمـ إـلـاـ انـ ثـقـلاـ يـدـبـ فـيـ أـطـرـافـ أـصـابـعـ الـقـدـمـيـنـ، يـتـسـبـحـ لـلـسـاقـيـنـ فـاـلـجـذـعـ، يـجـذـيـنـ الـثـقـلـ إـلـىـ أـدـنـىـ أـهـبـطـ أـهـبـطـ فـيـ رـعـبـ سـاحـقـ، لـمـاـذـاـ؟ أـلـمـ اـفـعـلـ مـاـ يـنـبـغـيـ؟ إـلـاـ يـكـفـيـ؟

أـحـاـوـلـ اـنـ اـفـيـقـ مـرـتـيـنـ بـلـاـ جـدـوـيـ. لـاـ أـعـرـفـ السـبـاحـةـ وـالـبـرـكـةـ آـسـنـةـ بـلـاـ قـاعـ، أـغـوـصـ - رـغـمـ زـيـبـقـيـةـ الـقـوـامـ - فـيـ مـنـقـوـعـ الـعـارـ وـالـمـرـارـةـ (لـمـ تـكـتـبـ سـنـاءـ الـحـيـدـلـ قـصـةـ، لـمـ تـقـرـفـ شـعـراـ، وـلـاـ قـامـتـ بـبـحـثـ عـلـمـيـ لـمـؤـتـرـ يـسـتـمـنـيـ)

لـاـ أـجـدـ عـذـراـ أـنـتـحـلـهـ، عـنـينـ يـتـوارـىـ خـجـلاـ مـنـ اـسـتـمـراـرـهـ حـيـاـ.

.....
أـنـتـهـتـ الـقـصـةـ، وـلـمـ تـنـتـهـ الـخـرـوبـ!! بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـ "كـلـ شـيـءـ هـادـئـ فـيـ الـمـيدـانـ الـشـرـقـيـ"